الأسرة الجزائرية: من الحالة التقليدية إلى الحالة الحداثية وما بعدها. دراسة نقدية بمقاربة سوسيوتأويلية

د/ العيدي صونية
جامعة بسكرة

الملخص :

يذهب "زيجمونت باومان" في مقالته "المخالطة الاجتماعية الدافقة" أن طبيعة النظرية انتقائية، إذ لا توجد نظرية لكل شيء تماما، و التنظير ينبعث من الحاجة إلى الاختيار؛ أي اتخاذ القرار بشأن الموضوعات المناسبة، أو كما يقول "ألفريد شوتز" إضاءة بعض النقاط و إخفاء ما عداها. من هذا الأساس ستنطلق هذه الورقة من المنظور التفاعلي الرمزي بالذات في تحليل التحول الطارئ على الأسرة الجزائرية من نمطها التقليدي المرتكز على السلطة الذكورية، مع تحديد أهم الرموز المحورية في التفاعل بين الأفراد و الأدوار و ما ترتب عليها من منظومات متسقة للتأويل و المعاني. إلى نمطها الحداثي و ما بعد الحداثي و ما ترتب عليها أيضا من منظومات رمزية و تأويلية أضفت معانٍ مغايرة لتلك المألوفة تقليديا، الأمر الذي أفرز عديد التحولات ليس فقط على مستوى الأبنية، و لكن أكثر من ذلك على مستوى الأدوار، و هو ما يجعلنا نتساءل عن مآلاتها في خضم هذه التغيرات الجمة التي تحيط بها إن داخليا أو خارجيا ؟

Abstract :

In his essay Social Connect, the author "Zygmunt Baumann" argues that the nature of theory is selective. There is no theory of everything entirely. And hide the others. From this point of view, this paper will be launched from the symbolic, interactive perspective, especially in the analysis of the emergency transformation of the Algerian family from its traditional style based on masculine power, identifying the most important symbols in the interaction between individuals and roles and the consequent consistent systems of interpretation and meanings. To its modernist and postmodern style and the consequent symbolic and interpretive systems that added meanings different from those traditionally familiar, which produced many transformations not only at the level of buildings, but more so at the level of roles, which is what makes us wonder about Its tasks in the midst of these great changes that surround them, internally or externally?

أولا: الإشكالية:

نولد بسجية اجتماعية، تزودنا بالذات التفاعلية مع مختلف البنى وفق عمليات دينامية تتبلور من خلالها مجموعة الأدوار الممكن أن نناط بها؛ كنتاج لرقصات الاجتماعية التي يمارسها الفرد مع الآخر فردا كان أم جماعة.

و الأسرة واحدة من أهم هذه البنى التي يجري فيها الفرد حواراته الإيمائية التي يتقمص فيها الأدوار الأولية، من خلال آلية الإذعان و الخضوع لعادات و تقاليد المجتمع الذي يوجد فيه، ومن هذا المنحى تفرض علينا نوع من السلطة ذات الطبيعة البوليسية توجب عليه نظام الثواب و العقاب المادي و اللامادي في ممارسته لهذه الأدوار على النحو المتوافق مع تلك الآلية؛ و تلك هي الذات المفعولة.

إلا أن المجتمعات الإنسانية اليوم قد استدمجت في نظام عولمي جعل حقيقة الذات الفاعلة أكثر تبلورا؛ بحيث أصبحت أكثر تحررا من التقيد بمنظومة المعايير و القيم السابقة لوجودها، والتي تتسم غالبا بالتقليدية غير المتوافقة، فإن هذه الذوات هي أيضا أكثر تحررا من تنميط أدوارها سيما تلك الممارسة داخل الأسرة؛ حيث أصبحت البراجماتية أهم الآليات التي يحتكم إليها الفرد في حواراته الداخلية في إعادة تشكيله لمفاهيمه حول أدواره الأسرية، وذلك في ضوء تكيفات اجتماعية تتوافق مع أدواره المختلفة التي يؤديها في مسرح حياته، وبالتالي فقد تحرر من سلطة قهرية التقمص إلى التكيف بآلية أقل جبرية و أكثر براجماتية. و هكذا فإن الأسرة تحولت إلى " فندق اجتماعي" تمارس فيه الذات أدوارها دون قيود التماسك الاجتماعي القهري.

ثانيا: رمزية المفهوم التقليدي للأسرة:

I- التأويل التقليدي لمفهوم الأسرة:

فمن الناحية السوسيولوجية تعرّف الأسرة على أنها: جماعة متميزة بالإقامة المشتركة بين بالغين من الجنسين، والأطفال الناتجين عنهما بيولوجيا أو بالتبني[i].

و الأمر صحيح من الناحية البنائية، لكنه لم يغطى حقيقة مفهوم الأسرة، لأنه أغفل أبعادا جوهرية في هذه الحقيقة أو هذا المفهوم.

وهو من الناحية الوظيفية عرّف على انه: " وحدة نسقية تؤدي أدوارا تلبي احتياجات تخصصية في المجتمع تساعد على ديمومة النسق الاجتماعي"[ii] ويتحدد بالمفهوم النسقي عند تالكوت بارسونز دوري الأسرة في:

أ- التنشئة الاجتماعية الأولية.

ب- وتحقيق الاستقرار في الشخصية[iii].

وهو أيضا تعريف تعرض لجملة من الانتقادات، فهو ركز على الأدوار والوظائف المناطة، دونما التعرض للكيفية التي تتشكل بها، والتفاعلات التي تنتجها.

ومن هذا المنطلق حاول أصحاب الاتجاه التفاعلي الرمزي باتخاذ الأسرة كوحدة تحليل صغرى للتعرف على مجموع التفاعلات والعلاقات بين عناصرها (الأزواج، الآباء والأبناء) وكذا كيفية ارتباطهم بالمجتمع الخارجي. فالأسرة إذن: هي وحدة من الشخصيات (الفواعل) المتفاعلة، ومن هنا فإن تكيف الأبوين مع المستجدات يؤهلهما لاكتساب أدوارهما الأبوية، وفشل ادوار احدهما يؤدي إلى تصدع بناء الأسرة، كما أن نجاح الزوجين في علاقتهما ببعضهما داخل الأسرة مرهون بدرجة إشباع كل منهما للآخر، ومن هذا المنظور أيضا فالآسرة هي الخلية الاجتماعية التي تقوم بتطبيع الوليد على السلوك الاجتماعي[iv] عن طريق منظومة الرموز، وفهم دلالتها من خلال التفاعلات والمعاني المشتركة التي تعبر عن السلوك الزواجي والأسري[v] .

ومن الناحية العلائقية فالأسرة هي جماعة أولية تتسم بالعلاقات المباشرة وجها لوجه، تلك العلاقات التي تقوم بين أدوار الزوج، الزوجة و الأبناء الناتجة عن عمليات التفاعل بين الفواعل والأدوار، فهي في النهاية نتاج تفاعل الرموز و حوار الإيماءات، بحيث يضفي الفواعل معانيهم الناتجة عن فهمهم لأفعالهم وأفعال غيرهم، لتشكل خبرة المعاش اليومي نمطية الحياة بشكل واضح إلى حد ما.

II- السلطة الأبوية والاتساق الجلي والجندري:

لقد شكلت الأسرة سابقا بموجب التفاعلات السالفة الذكر مُنتِجا لمنظومة الرموز الضمنية التي أعطت مفهومات جلية عمليا، لتَمثُّل الأدوار القيادية والقاعدية[vi]. و ذلك بشكل أكثر وضوح ومقبولية.

ويشكل التفاعل بين " الأنا المفعولة"، و" الأنا الفاعلة" علاقة زمنية امتدادية، أين تلعب الرموز القيمية والمعيارية المتمخضة عن العادات والتقاليد دور" كاتب السيناريو" في مسرحية " العائلة"؛ حيث يشكل النظام الأبوي بنية سيكواجتماعية متميزة، تتسم بهرا ركية العلاقات السلطوية وتراتبيتها، وغالبا ما تدعم النزعة الأبوية فكرة الجماعة المتشابهة المطيعة التي تؤكد على ثنائية (السلطة/ الخضوع) [vii]. فالنظام الأبوي (patriarchy) يؤكد على العادات

والتقاليد، ليشكل أكبر الذكور سلطة كلية أو جزئية على الزوجة والأبناء لاسيما الإناث منهم[viii]، لأن الأصل في علاقة السلطة هو اللاتوازن بين مجموع الفواعل إذ تمثل علاقة (متبوع/ تابع) بحيث يستجيب الأول لمبادرات الثاني ورغباته، بينما ينقاد الثاني لإرادات الأول وتعليماته وإيحاءاته، ولان مفهوم السلطة يرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم القوة، بحيث تغذي الأولى قوتها من مصدر شرعي معين، الأمر الذي يجعلها ذات قرارات نافذة ومثبوتة، موجبة للطاعة والتأييد، وهو ما يضفي عليها صفة (الواجب/الحق) في علاقة التابع و المتبوع [ix].

وهكذا فمفهوم السلطة يأخذ معناه من رمزية مفهوم " الذكورة"، حيث أنها في العلاقات التقليدية للأسرة تناط الأدوار السلطوية بالذكور ، والأبناء الذكور هم كذلك من يرث السلطة الأبوية في مرحلة لاحقة، أي أن توراث الأدوار القيادية يكون بالتنازل الجيلي وفقا للعامل البيولوجي المتعلق بالسن، بينما تناط الأدوار " القاعدية " بالإناث، ليشكل مفهوم الزوجة نتيجة التفاعل الجندري رمزا للوظيفة البيولوجية (الزواجية والإنجابية) والوظيفة الاجتماعية التنشيئية والوظيفة الثقافية كالتلاقح الثقافي والطبقي، إذ يأخذ تأويله في ضوء رمزية مفهوم " الأنوثة" ذي الصبغة القيمية المرتبطة بمفهوم الشرف والعرض...الخ، الرتيبة على رمزية مفهوم " الرجولة" في المجتمع الذكوري. وقد يتحرر مفهوم الأم من حدية مفهوم التبعية المطلقة أو السالبة أحيانا بالنسبة لتلك التي أنجبت الذكور – خاصة إذا زاد عددهم– لتحظى بالأدوار" الوسيطة" التي تكون حلقة الوصل بين السلطة الفوقية للذكور و الأدوار الدنيا للإناث الكنائن كن أم البنات.

ويذهب "جوفمان" في مقاله" الترتيب بين الجنسين" في تفسيره لمفهوم " تراتبية الوظيفة" إلى القول: " ضمن مجالات السلطة التقليدية وعندما كان اختصاص الإناث هو المطبخ، والحضانة، وتنظيف غرفة المعيشة، هناك جواب واحد مستعار من الحياة وربما يتم تمثيله، هو عدم تصوير الذكر بأي دور مشارك إطلاقا، انه بهذه الطريقة يتجنب الخضوع أو التلوث بمهمة الأنثى[x].

فالأدوار داخل الأسرة تشكل بذاتها منظومة مفاهيمية ناتجة عن التفاعل الجندري، والذي يخلق من خلال حوار الإيماءات وكذا الحوار الداخلي نوع من الاتساق، لتشكل بوضوح معاني رمزية ثنائيات (الزوج/الزوجة)، (الأب/ الأم)، (الإخوة/ الأخوات) وتعمل منظومة القيم على تلقين الذات المفعولة أساليب الطاعة والخضوع، مما يضمن اتساق الأدوار

والأبنية وتكاملها، و بنفس الاتساقية تؤول معاني ثنائيتي (الأب/ الابن) و (الأخ الأكبر/ الإخوة) في إطار التفاعل الجيلي.

III – الإعالة كمفهوم رتيب على رمزية السلطة الأبوية:

فالإعالة مفهوم يرتبط بثنائية (الزوج/الأب) ففي إطار العمليات الاجتماعية والتفاعلات اليومية، ارتبطت رمزية تلك الثنائية بكفالة معيشة ثنائية (الزوجة/ الأبناء) وتلبية حاجياتها، وارتبط تأويل مفهوم الحاجة بمعنى الاقتدار أو المقدرة وترتيب الأولويات (الضروريات)، وهكذا ترتب عن ذلك تأويل ثنائية (الزوجة/ الأم) حيث أخذت معناها من رمز " المُعالة" و "العايلة" من الناحية الاقتصادية، واقتصرت أدوارها على التدبّر والتدبير، وهكذا فإن الثنائيتين السابقتان شكلتا نوعا من التكامل الرمزي، وشكل المعنى نوعا من الاتساق "اتساقية المعنى" [xi].

و قد شكل حوار الإيماءات في تعريف الذات والآخر شكلا منسجما من التأويلات الاجتماعية في إطار ذلك التكامل وفق ثنائية (الواجب/ الحق) و(الحق/ الواجب)، إذ الإعالة واجب الزوج وحق الزوجة، والتدبير ومراعاة المقدرة حق الزوج وواجب الزوجة، ولان التأويل ليس عقليا كليا بشكل مطلق[xii]. فغالبا تلك التأويلات كانت ترسم في ضوء العلاقة الوجدانية القائمة على (الإحسان/ طيب المعاشرة)، ولان أصل العلاقة قائم على تأويل مفهوم "الذكورة" و"الرجولة" المرتبط بمعاني القوة و الذود والعطاء، و مفهوم "الأنوثة" المرتبط بمعاني الضعف والوقار، ومفهوم العمل المرتبط بمعاني الشقوة والعناء، مما يجعله – أي العمل– متناسبا مع الأول، متنافيا مع الثاني إذا يذهب " جوفمان" في هذا الصدد في مقاله " الترتيب بين الجنسين" إلى القول بأن " المدى الكلي من الواجبات المنزلية– مهما كان السبب– يعرف باعتباره غير ملائم للذكور، وتبعا لذلك– فان المدى الكلي من المهن خارج المنزل يعتبر غير ملائم بالنسبة للإناث) [xiii].

إذن فالمفهوم التقليدي للأسرة يبنى في إطار وعي الفواعل للرموز الناتجة عن التفاعلات والعمليات الاجتماعية اليومية حول الذات والآخر، من خلال آلية إدارة الانطباع،[xiv]. وتحليل مقولة (I'm what I think, you think I'am) " أنا أكون ما أنا أفكر، وأنت تفكر فيما أكون" بحيث أن صورتنا عن أنفسنا تتأثر بشكل حاسم بردود أفعال الأفراد الذين نتفاعل معهم ونتصل بهم، فلا يمكن أن نتجاهل تفسير الآخرين لذواتنا، لان صورة ذواتنا تتأثر تماما بصورة الآخرين عنا[xv].

فإن مفهوم (الزوج/الأب) عن ذاته يتشكل ضمن صورته لمفهوم (الزوجة/ الأبناء)، وصورتهم لمفهومه وتوقعاتهم عنه و كذا توقعاته عن تلك التوقعات، ليتبلور من خلال حوار الإيماءات الخارجية وحوارات المحادثات الداخلية رمز آخر يتعلق بمفهوم " القوامة" والذي يأخذ تأويله من المعنى المتعلق بالسلطة، والذي يرتبط بدوره بمفهوم الجندر والسن وهذه هي اتساقية المعنى ومنظومة الرموز و التي تحدد نسق من التأويلات المتعلقة بثنائيات رتيبة: (ذكورة/ أنوثة)، (زوج، زوجة)، (أكبر/ أصغر)، (القوة/الضعف)، (العمل/ الإنجاب)، (الإنفاق / التدبير)، (الاستثمار/ الادخار)....الخ.

IV- التنشئة الاجتماعية:

حسب التفاعلية الرمزية فإن التنشئة الاجتماعية هي عملية مستمرة، و تلعب دورا مهما في تكوين الوعي و الصور الذهنية من خلال إدارة الانطباع (عبد العزيزبن علي الغريب: " نظريات علم الاجتماع تصنيفاتها، اتجاهاتها و بعض نماذجها التطبيقية" [xvi].

و الأسرة التقليدية تركز في أدائها لهذه العملية كثيرا على البعد الجندري، فتؤكد في تنشئة الذكور على رمزي الاستقلالية و السيادة، بينما تنشِّئ الإناث على التبعية و الخضوع [xvii]، و يترتب على ذلك الصورة الذهنية للمكانة الفوقية للرجل و المكانة الأدنى للمرأة .

كما أن الوالدين يوجهان الأطفال الذكور إلى احترام صفة الذكورة و الابتعاد عن مظاهر الضعف[xviii].وهو ما يتوافق مع رموز الاجتهاد و التعلم و العمل و غيرها، و التي لا تعد رموزا متلازمة مع رمز الأنوثة التي تقتصر تلازميتها مع رموز الجمال و كفاءة العمل المنزلي و غيرها التي تؤهلها لأدوار الزواج و الأمومة بالمفهوم البيولوجي، و إنجاب الذكور للرقي في سلم تدرج المكانة الأنثوية.

إن مفهوم الهوية الجنسية مفهوما محوريا في التنشئة التقليدية، و يؤكد على تلقين منظومة رمزية غاية في الدقة و الصرامة فيما يتعلق بالحدود الفيصلية بين رموز الذكورة و مشتقاتها و رموز الأنوثة و مشتقاتها أيضا بداية من أبسط المعاني المترتبة على اختيار الأسماء و إلى غاية ضبط الأدوار القيادية و التابعة فسلم المكانة (مثال بورديو)

ثالثا: تغير منظومة المفاهيمية في الأسرة (إعادة تشكيل المفاهيم):

I- التشكيل الحداثي لمفهوم المرأة: من الاقتصاد المنزلي إلى سوق العمل:

لقد أدت الحركة النسوية في الممارسة البحثية السوسيولوجية إلى إماطة اللثام عن كثير من القضايا المتعلقة بالمرأة وأدوارها، سواء كانت زواجية أو أمومية داخل الأسرة، لتنشأ مجموعة مفاهيم تختلف عن تلك التي أنتجها "علم الاجتماع الذكوري" في العالم الغربي، حيث تحدثت الباحثة الأمريكية (Betty Freidan) في دراستها حول ربات البيوت الأمريكيات (1965م) عن مفهوم " الزوجة الأسيرة"، بناءا على ظاهرة الملل والعزلة التي أحاطت حياتها[xix].و في كتابها "اللغز الأنثوي" تذهب "فريدان" أن الحضارة في ذلك الوقت – ستينيات القرن 20م- قد رسمت صورة مشوهة للمرأة الأمريكية بحصر هويتها الأنثوية في رمز " ربة البيت الناجحة"، مما خلق لديهن "ذوات ناقصة" نتج عنها الكثير من العلل النفسية[xx]. لتكشف من خلال دراستها التي دامت زهاء الخمس سنوات عن منظومة رموز خفية مطمورة خلف جدران المطابخ الأمريكية كمفهوم "الذات المُصادَرة" و "معسكرات الاعتقال المريحة"[xxi].

إن مثل هذه الدراسة قد عرفت رواجا سيما بعد انتشار ظاهرة ولوج المرأة لسوق العمل، وشغلها لأدوار ومراكز مهمة وأحيانا محورية في الاقتصاد المنزلي والاقتصاد الوطني للمجتمع، وهذا ما أدى إلى تحول في أدوارها الأسرية التقليدية، وعلى الرغم من أن أدوارها البيولوجية لم تتقطع أو تندثر إلا أنها شهدت تغيرات من حيث البنية والمفهوم، وصاحبها نوع من الازدواجية في تمثيل الأدوار.

إن الغرض من عرض هذه الدراسة ليس كونها قد مست المجتمع الجزائري، و لكنها قد عالجت ماضيا في الولايات المتحدة الأمريكية ألقى بضلاله على حاضر الأسرة الجزائرية، و على الرغم من صدق مبدأ الخصوصية الثقافية في شقها المتعلق بالقيم الدينية و المعايير الاجتماعية، إلا أن منظومة المفاهيم التفاعلية بين فواعل الأسرة متشابهة كتلك المتعلقة بمفهوم الأسرة النواة، عمل المرأة، البيت المستقل، المؤسسات البديلة في تنشئة الصغار (دور الحضانة و الرياض) و غيرها من المفاهيم التي أصبحت اللغة المشترك في التفاعلات الأسرية في مختلف بقاع العالم تقريبا. و ستنطلق الباحثة في ورقتها هاته في تحليل جملة التغيرات التفاعلية الرمزية الطارئة على الأسرة الجزائرية استنادا لبعض المفاهيم التي أفرزتها تلك الدراسات مع الأخذ بعين الاعتبار آليات التأويل الخاصة بالأسرة الجزائرية في إضفاء المعنى على الرموز الواردة.

1- رمزية استقلالية بيت الزوجية المستق مع رمز "عمل" المرأة:

لقد أدى إقرار مبدأ المساواة بين المرأة و الرجل في الدستور الجزائري ، و كذا مشروع المجتمع الاشتراكي إلى استحداث رموز جديدة في المجتمع الجزائري بصفة عامة و الأسرة الجزائرية بصفة خاصة، فشراكة المرأة مع الرجل في المشروع التنموي الذي أخرجها إلى العمل خارج البيت، و ما استوجبه من ضرورات الاستقلال بالحياة الزوجية عن الامتداد العائلي التقليدي سكنيا و اجتماعيا بدرجات متفاوتة.

إذ لم يعد رمز "الزوجة" مرادفا لرمز "الأنثى" و ما يترتب عليها "الكنّه" في التأويل الحداثي، ليقتصر التأويل على علاقة "امرأة" ب "زوج" بغض النظر عن انتماءاته الأسرية السابقة (العائلة)، ذلك أن هذا المفهوم أصبح يرتبط بمفهوم "العمل" و ما استوجبه من أدوار إضافية لكنها رئيسة في حياة الزوجة، ف"الوقت" و " الجهد" أصبح موزعا بين البيت و المؤسسة، مما أدى إلى ضرورة تقليص العلاقات الاجتماعية من جهة (زوج، زوجة و أبناء) ، وتضييق الحيز المكاني للبيت من جهة ثانية مع توجه إلى تنظيم – وتحديد أحيانا– النسل و التحكم في الأدوار الإنجابية لتحقيق التكيفات اللازمة بين العدد و الفضاء. بمعنى أنه وقع نوع من الانقلاب في توزيع الأدوار الأنثوية البيولوجية لصالح الأدوار المهنية، مما أدى إلى ارتباط مفهوم "العلاقات القرابية" برموز دينية ك "العيد" و "رأس السنة الهجرية" وغيرها، و اجتماعية كالأعراس مثلا و ذلك حسب جدول أولويات زمنية تكون الأفضلية فيها للالتزامات المهنية للزوجة، ضف إلى ذلك أن اتجاه العلاقة غالبا ما يكون متجها من النواة إلى الامتداد بحكم ثنائية (الفضاء، الوقت).

لقد ترتبت رمزية مفهوم "العمل" على رمزية مفهوم "التعليم"، و رمزية مفهوم المرأة على رمزية مفهوم "الندية" الذي أفرزه مفهوم " المساواة" مع الرجل في التفاعل الخطابي السياسي الجزائري التشريعي و التنفيذي، وما أنتجه التأويل الاجتماعي عموما و الأنثوي خصوصا من إعادة تشكيل في سلم الأولويات الأنثوية، بحيث أصبح مفهوم الزواج يمثل درجة ثانوية في تمثيل الأدوار عند المرأة الجزائرية، فارتبط مفهوم الذات الفاعلة بتأخر سن الزواج، و ارتبطت الأدوار الإنجابية بتقلص مرحلة الخصوبة، و أنتج ذلك تقلصا في حجم الأسرة النواة، و ترتب عليه عدم ضرورة اتساع فضاء المسكن، و أعطى ذلك واقعا اجتماعيا حداثيا تقلصت فيه العلاقات القرابية، و تحررت فيه الزوجة من الرمزية التقليدية لمفهومها، و تضفيه عليها التأويلات السابقة كمفاهيم لصيقة ك "الكنه"، و ارتباط كفاءة ذاتها المفعولة

"الذات المُصادَرة" بكفاءة الأدوار الإنجابية المرتبطة بكثرة الإنجاب و زيادة عدد الأبناء الذكور خاصة، و كفاءة أدائها لأعمالها البيتية للترقي في سلم المكانة الاجتماعية في التصنيف القيادي و التصنيف الوجودي.

2- الاستقالة من الأدوار التنشيئية و عقلنة العلاقات الأسرية:

II- التشكيل مابعد الحداثي للمفهوم: إعادة بناء مفهوم المرأة في مجتمع الاستهلاك:

يشير "أريك فروم" في "خوف الحرية" إلى مخاطر فقدان الذات وإحلال ذات أخرى مكانها بقولة: " إن فقدان الذات وإحلال ذات مكانها يدفع الفرد إلى حالة من انعدام الاطمئنان، فالشك يلاحقه، إذ أنه أساساً مرآة لتوقعات الآخرين عنه بينما هو فقد هويته إلى حد كبير، وفي سبيل تجاوز الهلع الناتج عن خسارة الهوية هذه نراه مضطراً للبحث عن هوية ما من خلال قبول واعتراف مستمرين به من قبل الآخرين"[xxii].

إن حالة البحث عن قبول و اعتراف الآخر بالهوية أو الذات الجديدة (التغير أو التحول) هي السمة التي أصبحت تطبع المنظومة الرمزية السائدة في التفاعلات الأسرية الجزائرية بمختلف مستوياتها الطبقية، الاجتماعية و التعليمية كلٌّ حسب سيناريو مسرحيته الحياتية، و كفاءته في تمثل أدواره وقدرته العقلية بل أكثر من ذلك قدراته التكيفية مع البيئة و متطلباتها الملحة كرهان أمام وعي أفرادها بذواتهم و كذا هو الأمر بالنسبة لها لأنها في النهاية هي نتاج تفاعلاتهم الرمزية.

و من المنظور التفاعلي فالتغير الاجتماعي هو محصلة انعدامات التوازن الميكرواجتماعية، تلك التي تحدث من تلاقي سلوكيات فردية ذات غاية واحدة تؤدي إلى علاقات اجتماعية غير مرغوبة دون أن تكون هذه الأخيرة متضمنة في غايات أولئك الأفراد، إلا أن تجمع القرارات الفردية أدى إلى نتيجة جماعية؛ بحيث يترجم التفاعل عن طريق تراكم دائم لتلك الانعدامات التي تولّد بمجرد بلوغ "الكثافة الحرجة" تغيرات ماكرو اجتماعية.

إن ذلك مايترجم التغيرات الحاصلة في الأسرة الجزائرية التي أخذت أشواطا في التحول من مرحلة التقليدية إلى مرحلة الحداثية بفعل التحول الاقتصادي الصناعي مرحلة سبعينيات القرن الماضي، فمرحلة ما بعد الحداثية كمحصل حاصل للأحادية القطبية و اقتصاد السوق، لتتخرط بدورها بشكل سريع – بل متسارع – في مجتمع الاستهلاك.

و على الرغم أن مقامنا هذا لا يستدعي الخوض المعرفي العميق لتأصيل المفاهيم فيما كانت ما بعد الحداثة هي يقينا "مجتمع الاستهلاك"[xxiii]. كما ذهب ليو تارد؟ أم هي "الحداثة

المتأخرة" كما ذهب "أنتوني جيدنز"؟ أم أنها "الحاثة الدافقة" كما ذهب "زيجمونت باومان"؟ إلا أنني سأحاول التموقع مفصليا بينها جميعا لأحلل مآل الأسرة الجزائرية في المرحلة التي تدفقت فيه العولمة إلى كل البيوت، حتى تلك التي تعرّف بالنمط الترحالي و التي لم تعد بمنأى عن هاتف نقال و هوائي مقعر كأبسط تجليات الثورة الاتصالية العارمة أو الدافقة.

1- تجاوز رمزية المرأة إلى رمزية "الجسد" كواجهة أمامية للذات:

لم يعد حوار الإيماءات في التفاعل بين الذوات في الأسرة الجزائرية متمركزا حول مفهوم الرجل و المرأة و تبلور الأدوار الجندرية بشكل ستاتيكي أو حتى دينامي، لأن السياق الرمزي قد خلق منظومة فارقة – أو تجاوزية إن صح التعبير- تتعلق برموز كالصحة، الشكل و المظهر و غيرها من المفاهيم ذات الصلة بالجسد باعتباره تعبيرا عن الهوية، إذ لم تعد تأويلاته ترتبط بالمرأة كمفهوم بيولوجي بل تعداه ليتدفق على ما هو تفاعلي اجتماعي؛ حيث أخذ دلالته في ضوء الوعي الذاتي[xxiv]. بأهمية تمثل الأدوار، أو باعتباره كما ذهب " شارلز هوترن كوولي" مرآة الذات"[xxv].الأولية لإدارة الانطباع التنظيمي بكفاءة عالية مع وجود تعدد البدائل و الفرص لتحقيق الإشباع في سوق مفعمة بالتفوق الإنتاجي و التسويقي و الإعلامي.

لقد أصبح الجسد مفهوما محوريا و أساسيا و بالغ الأهمية بالنسبة لإعلام اليوم، و هو ماتصدق علية قصيدة " إدواردو جوليانو" في بيتها القائل: " تقول الإعلانات: الجسد مشروع تجاري"[xxvi]. إن هذا المشروع أوجب إنسياق مفهوم الجسد بالنمذجة الإنسانية – المتفوقة – فربطه عند الرجل بتسويق النمذجة المقترنة ب "الجسد العضلي" و سماته اللصيقة كالقوة و الصحة و غيرها كسمة تحقق تفوق الذكورة على الأنوثة حسب تعبير "جيفورد" [xxvii]، في حين ربطه بالنسبة للمرأة بالنمذجة المقترنة ب "الجسد الانسيابي" و سماته اللصيقة كنوع البشرة و لونها و ملامح الوجه و غيرها، و هو الأمر الذي حقق تفوقا جماهيريا لتخصصات بعينها كالطب و خاصة طب التجميل و غيرها، و كذا الصناعة السينمائية والتلفزية كقادة رأي. و في هذا الصدد يذهب "تورنر" (Turner) (1982) إلى أنه في مرحلة مابعد الحداثة ارتفعت درجة تحكم الدول و المهن الطبية في الجسد، بينما تراجع نفوذ السلطة الدينية، و هو ما يتوافق مع ما ذهب إليه " أنتوني جيدنز" أنه واحدة من العلامات الفارقة للحداثة العالية تلاشي نفوذ السلطة الدينية على الجسد ليتبلور كأداة لتشكيل الذات، فهو أساسا صلبا لإعادة بناء معنى لعالم حديث جدير بالثقة، يرتبط فيه البشر بأجسادهم[xxviii].

و دون الخوض في المنطقة خلفية للجسد و تأويلات الكواليس نؤكد في ورقتنا هذه أن هناك تحول عميق في مفهوم الجسد كواجهة أمامية لذوات الأفراد، أفرز تحول آخر في مفهوم العمل الذكوري و الأنثوي في الأسرة و ما يترتب عليه من مفاهيم الإعالة و الإنفاق و التدبير المنزلي و غيرها، إذ أصبح الإنفاق على الجسد يستحوذ على نسبة معتبرة من الراتب الأسري و ربما بدرجة أعلى من الراتب الأنثوي، و ذلك بغية تحقيق نوعا من التميّز أو في الحقيقة من "التفرد" لمفهوم الذات. إن مسألة الإشباع حسب النمذجة الإنسانية – المتفوقة– للجسد جعل "المحاكاة" مفهوما أساسيا في تأويل – داخليا كان أو خارجيا– الذات الأنثوية خاصة، وفي سعيها لتحقيق تلك الذات بعيدا عن المصادرة الذكورية وقعت تلقائيا في المصادرة النمذجية لتنتج المصادرتين نوعا متعديا للمصادرة يتعلق بالمصادرة الذاتية، إنها مصادرة الأنثى لذاتها صادقت فيه على تحول الجسد الأنثوي إلى سلعة مادية – مفرغة من الجوانب الوجدانية و الروحية– قابلة للمقايضة و الاتجار الرمزي ، ليتحول مفهوم الزواج إلى تفاعل الاختيارات البراجماتية للأجساد – اختيار أنثوي عقلاني يستهدف تعظيم المنفعة كما هو الحال لجانب من الاختيار الذكوري– و تنساق العلاقات الوجدانية إلى العمل العاطفي وهو ما تعرفه "آرلي رسل هوشليد" على أنه إدارةً للمشاعر– الإدارة العاطفية – من أجل خلق عرض للجسد و الوجه بحيث يكون ملاحظا و باديا عينيا[xxix]، و في الوقت الذي أؤكد فيه بأن الأمر لا يتعلق بمفهوم الأجر فإنني أؤكد على فكرة أن العواطف أصبح لها قيمة – ثمنا– مادية أين يكون ابتذال المشاعر بغية تحقيق الإشباع الأقصى للحاجات المادية بدرجة كبيرة، فيؤول مفهوم الشريك أنثويا بدرجة الاقتدار المالي لكفاية الإشباع و يؤول ذكوريا بالدرجة ذاتها للاستقالة من التزام مفهوم الإعالة مضاف إليها كأولوية ثانية جمالية الجسد المادي، الأمر الذي جعل تفاعل الأجساد يخلق نوعا من السهولة و اليسر في فك الروابط المادية و إتاحة فرص استبدال الأجساد بالأجساد و ينتج هذا التأويل مفهوما آخرا يعرف ب"الطلاق" وهو ما تفسره المعدلات المرتفعة للظاهرة في الأسر الناشئة في مرحلة التفوق الحداثي كما يعبر على ذلك "جيدنز"؛ حيث لم يعد الطلاق يشير إلى تبرم حاد بالعلاقة الزوجية أو حتى الأسرية بل نتيجة الإصرار المتزايد على جعل تلك العلاقات أكثر إشباعا و إرضاء أكثر منه لاختلال العلاقات الزوجية و الأسرية و هو ما عبّر عنه بالفردية العاطفية، و ربما أميل إلى مفهوم الفردانية العاطفية أو تمركز الوجدان حول الذات أو الأنا.

2- الرقص مع الأغراض واجهة أمامية للرقص الاجتماعي:

كما مفهوم الجسد فالأثاث و أغراض البيت أصبحا أولوية في حوار الإيماءات تحدد من خلاله المكانة المترتبة على تمثل الأدوار في المسرح اليومي للحياة؛ إذ يقترن رمزي الراحة و الرفاه بتأويلات تترتب عليها منظومة رمزية تتعلق بالنظام و الترتيب و الحس الفني و الجمالي ليس لكون أغراض البيت مجرد مقتنيات عشوائية و لكن لكونها ترجمة للهوية الذاتية للتآلف الزوجي و الأسري[xxx]، بحيث تتكامل النمذجة الجسدية – المتفوقة- بنوعية أغراض تلائم ذلك التفوق ليشيد ذلك التكامل نوعا من الوحدة – و الاتساق- في هوية الفواعل داخل الأسرة.

و كما تمكن الإعلام ما بعد الحداثي في تحقيق الانسياق إلى النمذجة الجسدية، فقد تمكن أيضا من النفوذ إلى البيوت بنمذجة بيتية متفوقة تتناسب مع تفوق نموذج الجسد، و مثلما الأزياء و عالم موضة الهندام كذلك أصبح للأغراض موضة موسمية تتجدد سنويا بعلامات فارقة تجعل عدم المواكبة شيئا ملحوظا للعيان، و تلعب " المحاكاة" دورا جادا في الوعي الذاتي و إدارة الانطباع الناتج عن التفاعل الرمزي داخل الأسرة و خارجها بغية ودون مراعاة الفوارق بين الأدوار المتمثلة و ما يترتب عليها من مكانة و مركز – الفوارق الطبقية، الاجتماعية أو الاقتصادية – ليتحول فيها حوار الكواليس إلى صراع للأدوار وحوار منطقة الواجهة إلى استنفار في قدرات التكيف البيئي.

رابعا: النتيجة: التحول في مفهوم البيت من المفهوم الاجتماعي إلى المفهوم المكاني "البيت الفندق":

ذهبت دراسة كل من (Back & Beck Gernshein) سنة 1995م إلى أن من أهم سمات العائلة (الأسرة) في المجتمعات المعاصرة هي تضارب المصالح: العمل، الحب والسعي إلى تحقيق الأهداف الشخصية[xxxi]. وهو ما عبرنا عليه آنفا بتحول العلاقات الأسرية الوجدانية إلى عمل عاطفي ترتب عليه استقالات بالجملة – أحيانا- في تمثل الأدوار فمن مفهوم التكامل الزوجي إلى مفهوم الشراكة الاقتصادية العقلانية، و من مفهوم التنشئة الأسرية إلى مفهوم الحضانة البديلة – أو ما يسمى بدور الحضانة- و من مفهوم تكامل الأدوار التعليمية بين الأسرة و المدرسة إلى التعليم و التعليم الموازي – السوف السوداء للتعليم أو ما يعرف بالدروس الخصوصية- و من مفهوم الكفالة الأسرية لتحضير الإطعام كدور أنثوي إلى مفهوم الكفالة الخارجية و دور المطاعم كأحد الفواعل في عملية التفاعل الأسري.

إن هذه التحولات الناتجة بالأساس الأول على عمل كل من الزوجة و الزوج خارج البيت لساعات طويلة تمتد عادة حسب نظام العمل الجزائري من الساعة الثامنة صباحا إلى الخامسة مساء مضاف إليها وقت الاستعداد و الذهاب و الإياب، يلازمها فترات إيواء الأطفال دون سن التمدرس في دور الحضانة، و التحاق المتمدرسين بالمدارس و الجامعات، و إذا تم خصم الساعات البيولوجية المتعلقة بإشباع حاجة النوم، فإن الزمن المتبقي بالكاد يلبي إشباع الحاجات المتعددة كل حسب سلم حاجاته، و قد انعكس ذلك على العلاقات الاجتماعية؛ بحيث تقوضت بشكل كبير جدا و بدرجات متفاوتة العلاقات القرابية، و تقلصت بشكل ملحوظ جدا العلاقات بين أفراد الأسرة النواة، أما إذا تم لتحليل مستوى هذه العلاقة في إطار الثورة الاتصالية العارمة، و تأثير الشبكة العنكبوتية على شكل و مدى الاتصال الأسري المباشر فإنه يمكن إدراك أن العلاقات المباشرة و الأولية للأسر قد تحول إلى علاقات ثانوية و غير مباشرة مقارنة بشبكة العلاقات الافتراضية لأفراد الأسرة الواحدة. مما جعل مفهوم "البيت" يتحول من مفهومه الاجتماعي الذي يعطي تأويلات الاجتماع و السكينة و الاستقرار، إلى مفهوم المأوى بالمعنى المكاني، كما يمثله مفهوم "الفندق" بالنسبة للسائح أو المسافر.

خاتمة:

لقد حاولت من خلال هذه الورقة التعرض لمجموعة بذاتها من التحولات الطارئة على الأسرة الجزائرية كنتيجة لسياقات التفاعل الرمزي الدارج بين فواعلها و ما ينتجه من منظومات رمزية متباينة من مرحلة إلى أخرى. و ربما سيتجه بعض نقاد هذه الدراسة أنها اتسمت بنوع من الاستباق في الحكم على واقع الأسرة في الجزائر، فأجيب بأنني حاولت أن أضيء نقاطا بعينها قد لا تعم كل الأسر و لكنها بوادر لمآلات أكيدة لنمط أسري انساق نحو النمذجة الإنسانية المتفوقة لترتيبات الحداثة و ما بعدها أين أصبح الفاعل عبارة عن مجموعة انسياقات تشيد لوعي عالمي خارج نطاق خصوصية الرموز الثقافية و الدينية و تكون فيه التأويلات خاضعة لمادية العقل و الوجدان معا، و ذلك ما استهدفت توضيحه من مجموع الاستشهاد بجملة من الدراسات الغربية أو بالأحرى الأمريكية. و ربما يذهب البعض الآخر لانتقاد المنظور النظري الذي قاربت من خلاله الباحثة دراستها و لماذا لم تقاربها من منظور اثنوميثودولوجي والمنهجية الشعبية وهو مشروع قائم لفعاليات مشابهة تختص بالأسرة كمتغير سوسيولوجي يستحق الممارسة البحثية الأصيلة و المعمقة.

الهوامش:

[i] – الصديق درعي: "سوسيولوجيا الأسرة مقاربة نظرية" 2013/09/10 www.Anewar.org :http.

[ii] – أنطوني جيدنز، (2005)، علم الاجتماع ، ترجمة: فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط4، ص 258

[iii] – المرجع نفسه، ص 258

[iv] –http://hamidsaad.blogspot.com

[v] – سناء الخولي، (2003)، الأسرة والحياة العائلية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص156

[vi] – إحسان محمد الحسن، (2005)، النظرية الاجتماعية المتقدمة، دار وائل، عمان، ص106

[vii] –http//Helaph.com

[viii] –http://ar.wikipedia.org

[ix] – خليل أحمد خليل، (1989)، المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، دار الحداثة، بيروت، ص122

[x] – رث والاس، اكسون وولف، (2011): النظرية المعاصرة في علم الاجتماع ، تمدد آفات النظرية الكلاسيكية ترجمة: محمد عبد الكريم الحوراني، دار مجدلاوي، عمان، ص392

[xi] – محمد عبد الكريم الحوراني، (2007) النظرية المعاصرة في علم الاجتماع التوازن التفاضلي صيغة توليفة بين الوظيفة والصراع، دار مجدلاوي، 26

[xii] – المرجع نفسه، ص26

[xiii] – رث والاس، اكسون وولف، المرجع السابق، ص323

[xiv] – أنطونيو جيدنجر، المرجع السابق، ص173

[xv] – فيليب جونز، (2010) النظرية الاجتماعية والممارسة البحثية ، ترجمة ياسر الخواجة، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص155

[xvi] –www. Pdffactory.com

[xvii] – "التفاعلية الرمزية نظرية أم منظور" http: //alameed 70.wordpress.com/2015/06/02

[xviii] – صادق حطابي: "نظريات مفسرة لعمالة الأطفال" www.swsmsa.net

[xix] – أنطونيو جيدنز، المرجع السابق، ص260

[xx] –http://www.goodreads.com/book/show/25980765

[xxi] –http://www.al-akhbar.com/node/203473

[xxii] – منشورات اتحاد الكتاب العرب، (1996)، "الخصوصية في الثقافة القومية العربية (دور الإنتاجية والإبداع).

[xxiii] – فريدريك جيمسون، "مابعد الحداثة و مجتمع الاستهلاك"، محمد، سبيلا، وعبد السلام، بنعبد العالي، (2007)، ما بعد الحداثة3 تجلياتها وانتقاداتها، الدار البيضاء (المغرب): دار توبقال للنشر، ص25-31

[xxiv] –http://alameed70.wordpress.com/2015/06L02

[xxv] – رث والاس، اكسون وولف، المرجع السابق، ص328

[xxvi] – كرس شلنج، (2009)، الجسد والنظرية الاجتماعية، منى البحر، نجيب الحصادى (مترجمين)، دار العين، الاسكندرية، ص14

[xxvii] – المرجع نفسه، ص59

[xxviii] – المرجع نفسه، ص20-21

[xxix] – رث والاس، اكسون وولف، المرجع السابق، ص404-405

[xxx] – فيليب كابان، جان فرانسوا دورتيه، (2010)، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات، اياس حسن (مترجما)، دار الفرقد، دمشق، ص348-349

[xxxi] – أنطونيو جيدنجر، المرجع السابق، ص260